ابن حزم في (سير النبلاء)

« نشرت كتابي (ابن حزم الاندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة) في ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ [ايار ١٩٤٠ م] وكنت نشرت منه قبل ذلك فصلاً في مجلة الثقافة المصرية وآخر في مجلة التمدن الاسلامي الدمشقية ، ثم تلقيت بالبريد المضمون آخر عام ١٣٥٩ هـ مغلفاً فيه رسالة خطية عنوانها : « ترجمة ابن حزم رحمه الله ، منقول من النبلاء للذهبي » وكلاماً آخر عرفت منه ان في خزانة صاحب الجلالة الامام يحيى حميد الدين صاحب اليمن نسخة من كتاب النبلاء بصنعاء ، وان وجيه الحجاز الشيخ محمد نصيف لما علم باشتغالي بدراسة الامام ابن حزم حمله اريحيته ونبله فكلف السيد محمد بن احمد الحجري بنسخ ترجمة ابن حزم من النبلاء ثم أوصلها الي .

والرسالة المهداة كتاب مستقل كما الفه الذهبي وقد قرئ عليه وفي آخره سماعان احدهما بخطه كتبه بدمشق سنة ٧٣٦ والثاني كتبه بدمشق ايضاً ابن جماعة سنة ٧٤٠ هـ فرأيت من الواجب — والرسالة هذا الخطر — ألا أستأثر بها وان انشرها في مجلة المجمع العلمي العربي تعميماً لفائدتها .

وانا اذ أشكر فضل الشيخ محمد نصيف وغيرته على العلم لا يسعني إلا ان ارفع الى صاحب الجلالة اليمنية على صفحات هذه المجلة رجائي ورجاء كثير من خدمة العلم بأن يأمر بطبع هذا الكتاب النفيس فيرد بذلك غلة العطاش من رواد العلم ويحيي أثراً نفيساً ويضيف الى آثاره الجليلة هذه المحمدة الجديدة ، ويحقق امنية ليس احق بتحقيقها من الملك العالم المجتهد الفقيه . ودمشق تغتبط اذا امر جلالته فأرسل هذه النسخة النادرة الحلاة بخطه وثقها الى مجمعنا العلمي فيقوم باعدادها للنشر ، ومن الحق ان تقوم دمشق بنشر أثر خرج من خزائنها وألفه في مدارسها ابنها وأحد مفاخرها الخالدة على وجه الدهر »

وهذه كلمة عن المؤلف الامام الذهبي وعن كتابه سير النبلاء أقدمها بين يدي الرسالة :

شهد القرن الثامن للهجرة علماء محدثين وحفاظاً أعلاماً ، استأثر بالاجماع منهم أربعة كان اليهم المرجع ، وعليهم المعول ، وانعقدت لهم الامامة في الحديث ومعرفة الرجال : وهم الحافظ المزي والبرزالي وتقي الدين السبكي ومترجمنا شمس الدين الذهبي . وقد كان مترجموه من جلة العلماء كتاج الدين السبكي والجلال السيوطي والحافظ ابي المحاسن الحسيني الدمشقي وصاحب (فوات الوفيات) وخليل ابن ايبك الصفدي صاحب (نكت الهميان في نكت العميان) وغيرهم ، فأطبقوا جميعاً على أنه حافظ

عصره الذي تشد اليه الرحال من مختلف الاقطار . وناهيك بشهادة هؤلاء الحفاظ المحدثين الأجلاء .

مولده ونسبه

كان مولد شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز التركماني بدمشق سنة ٦٧٣ واصله من ميافارقين واشتهر بالذهبي [١] ونعته الحافظ الحسيني بـ « شيخ المحدثين قدوة الحفاظ والقراء محدث الشام ومؤرخه ومفيده » [١]

طلبه ونبوغه

بدأ بطلب الحديث وله ثمان عشرة سنة ، فسمع على شيوخ الشام ومصر ومنهم شيخ الاسلام ابن دقيق العيد ، وكان هذا « شديد التحري في الإسماع [٢] » لم يقبله حتى اختبره في معرفة الرجال وسأله اشياء اجابه عنها بسداد . ثم جاب مدن الشام يلقى فيها الشيوخ فسمع بدمشق وبعلبك وحمص وحماة وحلب وطرابلس ونابلس والرملة والقدس ورحل الى الاسكندرية وبلبيس والقاهرة ومكة [٢] حتى صار « إمام الوجود حفظاً وشيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال في كل سبيل [٣] » فرسخت قدمه وذاعت شهرته وضرب بحفظه المثل .

وأقام بدمشق يقصده فيها العلماء من طلاب الحديث من كل قطر ومصر وتنهال عليه الأسئلة من البلدان فيجيب عليها من حفظه . وكان في القراءات عالماً جامعاً . قرأ القرآن وأقرأه على الوجوه السبعة .

شيوخه وتلاميذه

بلغ عدد الذين ذكرهم في (معجم أشياخه) ثلاثمائة شيخ والف شيخ [٤] .
وقد حفظت لنا كتب الطبقات بعض الأعلام المشهورين ممن قرأ عليهم وأقرأهم ،

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٤ (دمشق ١٣٤٧ هـ) (٢) نكت الهميان ص ٢٤٢ فما بعد وشذرات الذهب ٦ : ١٥٤ (٣) السبكي في طبقات الشافعية ٥ : ٢١٦ (٤) فوات الوفيات ٢ : ١٨٣ وفيها وفي طبقات الشافعية ذكر لبعض شيوخه المشهورين فانظرهم ثمة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جاء في شذرات الذهب : « أجاز له ابو زكريا ابن الصيرفي والقطب ابن ابي عصرون ، والقاسم الإربلي . سمع بدمشق من عمر بن القواس واحمد بن هبة الله بن عساكر ويوسف بن احمد الغسولي وغيرهم ، وببعلبك من عبد الخالق بن علوان وزينب بنت عمر بن كندي وغيرهما ، وبمصر من الابرقوهي وعيسى بن عبد المنعم بن شهاب وشيخ الاسلام ابن دقيق العيد ، وسمع بالاسكندرية من ابي الحسن علي بن احمد الغرافي وابي الحسين يحيى بن احمد بن الصواف وغيرهما ، وبمكة من التوزي وغيره ، وبنابلس من العماد بن بدران [1] »

« وأجاز له خلق من اصحاب ابن طبرزد والكندي وحنبل وابن الحرستاني وغيرهم وخرج لجماعة من شيوخه وجمع القراءات السبع على الشيخ عبد الله بن جبريل المصري نزيل دمشق [2] » .

وقد حمل عنه الكتاب والسنة وعلم الرجال خلائق لا يحصون كثرة ، وحسبك ان منهم التاج السبكي صاحب طبقات الشافعية الكبرى ، والسيوطي المؤلف المكثر ، وانظر قدره عندهما في ترجمتها له فيما الفا من كتب الرجال . ومنهم الصفدي صاحب « نكت الهميان » واليك شهادته فيه في كتابه نكت الهميان ، قال :

« اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه ولم أجد عنده من جمود المحدثين و كوذنة النقلة ، بل هو فقيه النظر له دربة بأقوال الناس ، ومذاهب الائمة من السلف وارباب المقالات . وأعجبني ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثاً يورده حتى يبين ما فيه من ضعف متن او ظلام إسناد أو طعن في رواة ؛ وهذا لم أر غيره يعاني هذه الفائدة فيما يورده . [3] » وقد قرأ عليه الصفدي هذا من تاريخ الاسلام المغازي والسيرة النبوية الى آخر ايام الحسن رضي الله عنه ، وجميع الحوادث الى آخر سنة سبعمائة .

(١) شذرات الذهب ٦ : ١٥٤ (٢) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٤ ، ٣٥٦ (٣) نكت الهميان في نكت العميان ص ٢٤٢

عمله ووفاته ورثاؤه

ولي في حياته «مشيخة الظاهرية قديماً ومشيخة النفيسية والفاضلية والتنكزية وأم الملك الصالح» حتى اذا كان عام ٧٤١ كف بصره فانقطع عن التأليف واكب على التدريس الى ان وافاه اجله «ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة سنة ٧٤٨[١]»

روى التاج السبكي في طبقاته ان وفاة الذهبي كانت «بالمدرسة المنسوبة لأم الصالح[٢] في قاعة سكنه ورآه الوالد (يعني تقي الدين السبكي) رحمه الله قبل المغرب وهو في السياق وقال : كيف تجدك ؟ فقال : في السياق ، ثم سأله : أدخل وقت المغرب ؟ فقال له الوالد : ألم تصل العصر ؟ فقال : بلى ولكن لم أصل المغرب الى الآن . وسأل الوالد رحمه الله الجمع بين المغرب والعشاء تقديماً فأفتاه بذلك، ففعله . ومات بعد العشاء قبل نصف الليل ودفن بباب الصغير ، حضرت الصلاة عليه ودفنه .[٣]» وهكذا انقضت حياة حافلة بالعلم والتعليم والدين والتقى . فبكاه العلم وأهله ، وبكته المدارس وحلقات التدريس ، وفقدته بيوت الكتب التي طالما ملأها بالمفيد الممتع من مصنفاته في علوم الكتاب والسنة والشريعة . وهذه ابيات مما رثاه به تلميذه التاج السبكي :

من للحديث وللسارين في الطلب	من بعد موت الامام الحافظ الذهبي
من للرواية والاخبار ينشرها	بين البرية من عجم ومن عرب
من للدراية والآثار يحفظها	بالنقد من وضع اهل الغي والكذب
من للصناعة يدري حل معضلها	حتى يريك جلاء الشك بالريب
هو الامام الذي روّت روايته	وطبق الأرض من طلابه النجب

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ (٢) هي على يمين المنحدر في زقاق المحكمة قبيل آخره وفي محلها اليوم دار بدير ودار تقي الدين ولا تزال معالم المدرسة ظاهرة عليها ـ كذا أخبرني أحد العالمين، شأنها في ذلك شأن غيرها من عشرات المدارس التي آوت غرفها كبار العلماء والحفاظ والقراء والفقهاء ومن هذه الغرف خرجت إلى أقطار العالم آلاف الكتب النفيسة التي انتفع بعلمها واهتدى بهديها الملايين من البشر

(٣) طبقات الشافعية

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثبت صدوق خبير حافظ يقظ في النقل اصدق انباء من الكتب
الله اكبر ما أقرا وأحفظه من زاهد ورع في الله مرتقب[1]

شهرته العلمية ومنزلته بين الحفاظ

وبعد فالذهبي احد مفاخر دمشق على وجه الدهر ، جعل منها طول حياته محطاً « يرحل اليه من سائر البلاد وتتادبه السؤالات من كل ناد »[2] فهو واحد من أولئك الأعلام الذين ساهموا في بناء مجدها العلمي العظيم وصاروا أمنية التمني والغاية التي يتطلع إليها كل طامح : حكي عن شيخ الاسلام ابي الفضل بن حجر انه قال : « شربت ماء زمزم لأصل الى مرتبة الذهبي في الحفظ . »[3]

وجعله السيوطي احد اربعة كان المحدثون في عصره عيالاً عليهم في الرجال وسائر فنون الحديث وهم : المزي والذهبي والعراقي وابن حجر . « وقد قارن حافظ الشام ابن ناصر الدين بين الذهبي والبرزالي والمزي فحكم للمزي بالتفوق في معرفة رجال طبقات الصدر الأول ، وللبرزالي في العصريين ومن قبلهم من الطبقات القريبة منهم ، وللذهبي في الطبقات المتوسطة بينهما تأييداً لقول بعض مشايخه . على ان الأهواء قلما تتغلب على المزي والبرزالي في تراجم الناس بخلاف الذهبي »[4]

مؤلفاته

عاش خمساً وسبعين سنة ترك خلالها نحواً من مئة مصنف جمعت من أسمائها ستة وثمانين ، بعضها مشهور متداول كثر منه النفع وعظمت اليه الحاجة .

قرأت مسارد تآليفه في المصادر التي ترجمت له ، فرأيت اكثرهـا في الحديث ورجاله وما بقي منها ففي التاريخ . وأقصد بالتاريخ هنا : فن التراجم الذي برع فيه العرب براعة ما بعدها غاية ، وتفننوا فيه فنوناً شتى . أما مؤلفاته التي ضمنها ما « جرح

(١) اختار هذه الابيات السيوطي في ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٤٩ وانظرها مختارة بقلم ناظمها في طبقات الشافعية ٥: ٢١٩ (٢) كذا السبكي (٣) ذيول تذكرة الحفاظ ص ٣٤٨ (٤) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ الحاشية

وعدّل وفرّع وصحح وعلل واستدرك وأفاد وانتقى واختصر من تآليف المتقدمين والمتأخرين [١] » فقد حوت علماً كثيراً وتيسيراً على العلماء والطلبة ، وأشير هنا الى ان من اطولها تاريخه الكبير المسمى بتاريخ الاسلام في عشرين مجلداً [٢] ، طالعه الحافظ الزملكاني جزءاً جزءاً حتى أنهاه فشهد له بالجلالة [٣] ولعله اعظم مؤلفاته الكبار في التاريخ على الاطلاق .

ويليه في الضخامة (سير النبلاء) وهو ما نحن بصدد نشر جزء منه اليوم ، والذي يؤخذ من الذين ارخوا الذهبي ان (النبلاء) مختصر من تاريخه الكبير [٤] والذي اميل اليه انه انتقى تراجم من التاريخ الكبير فجمعها في سير النبلاء . والذهبي نفسه تفنن في الاستفادة من تاريخه الكبير فاختصره على عدة مرات ، جاء في شذرات الذهب في صدد مؤلفاته : « منها تاريخ الاسلام ، ومختصر سير النبلاء في عدة مجلدات كثيرة ، ومختصر العبر في اخبار من غبر ، ومختصر آخر سماه الدول الاسلامية ومختصره الصغير المسمى بالاشارة ومختصره ايضاً وسماه الإعلام بوفيات الأعلام [٥] » والذهبي في هذا الفن من التاريخ يكاد لا يجاريه احد وكتبه في الرجال على اختلاف فنونها لا يستغني عنها باحث اليوم .

ARCHIVE

وإليك جريدة مؤلفاته التي جمعتها من مصادر مختلفة [٦] ، ولا بد من الاشارة الى انه قد يكون فيها اسمان لكتاب واحد ، كل مصدر يذكره باسم ، كما ان اكثر ما قصر على التراجم هو — في رأيي — جزء من التاريخ الكبير على ما سيمر بك اذا بلغت الكلام على (سير النبلاء) ولعل في غير التراجم ما يدخل ايضاً في هذا الباب :

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ (٢) المصادر السابقة وكشف الظنون ومنه اجزاء في الخزانة الاحمدية بحلب (٣) فوات الوفيات (٤) كشف الظنون (٥) منه نسخة رأيتها في دار الكتب الظاهرية وعليها سماع بخط الذهبي نفسه كتبه سنة ٧٣٥ ﻫ رقمها : مجموعات ١١٦ / ١١

(٦) فوات الوفيات ٢ : ١٨٣ ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ م ، ٣٦٨ ، شذرات الذهب ٦ : ١٥٤ . طبقات الشافعية للسبكي ٥ : ٢١٦ فما بعد ، نكت الهميان ص ٢٤٢ ، كشف الظنون ، قاموس الاعلام .. وغيرها .

١ آداب حملة العلم
٢ أحاديث الصفات
٣ أحاديث مختصر ابن الحاجب
٤ أخبار السد
٥ « ابي مسلم الخراساني
٦ اختصار تاريخ الخطيب (جزءان)
٧ « تاريخ ابن السمعاني
٨ « « ابن عساكر (عشرة اجزاء)
٩ « « نيسابور
١٠ « تقويم البلدان لصاحب حماة
١١ « سنن البيهقي (خمسة اجزاء)
١٢ « كتاب الاطراف (جزءان)
١٣ « كتاب البعث للبيهقي
١٤ « « الجهاد لابن عساكر
١٥ « « جواز السماع لجعفر الادفوي
١٦ « « الرد على الرافضة لابن تيمية
١٧ « « الزهد
١٨ « « سلاح المؤمن في الادعية
١٩ « « العلم لابن عبد البر
٢٠ « « الفاروق لشيخ الاسلام الانصاري (مع اختصار وتهذيب)
٢١ اختصار كتاب القدر للبيهقي
٢٢ « « المستدرك للحاكم (جزءان)
٢٣ اختصار وفيات المنذري والشريف النسابة
٢٤ الاصابة في تجريد اسماء الصحابة
٢٥ الاعلام والتجريد في اسماء الصحابة [لعلها واحد]
٢٦ الإمامة الكبرى
٢٧ تاريخ الاسلام (عشرون مجلداً)
٢٨ التاريخ الممتع (ستة اجزاء)
٢٩ تاريخ النبلاء (الا كثر انه سير النبلاء عينه)
٣٠ التبيان في مناقب عثمان
٣١ التجريد في اسماء الصحابة (لعله الذي مر)
٣٢ تحريم الأدبار (جزءان)
٣٣ تذكرة الحفاظ (اربعة اجزاء)
٣٤ تذهيب التهذيب للكمال (ثلاثة اجزاء)
٣٥ ترجمة السلف
٣٦ التلويح بمن سبق ولحق
٣٧ التمسك بالسنن
٣٨ تنقيح احاديث التعليق لابن هوري
٣٩ توقيف اهل التوفيق على مناقب الصديق
٤٠ الثلاثين البلدية
٤١ جزء صلاة التسبيح
٤٢ « في الشفاعة
٤٣ جزءان في صفة النار
٤٤ جزء في فضل آية الكرسي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤٥ دعاء المكروب
٤٦ دوام النار
٤٧ دول الاسلام
٤٨ الروع والادجال في بقاء الدجال
٤٩ الزلازل
٥٠ الزيادة المضطربة
٥١ سير اعلام النبلاء
٥٢ سيرة الحلاج
٥٣ طبقات الحفاظ
٥٤ 〃 القراء (اسماء القراء الكبار على الطبقات والأعصار)
٥٥ طرق احاديث النزول
٥٦ العباب في التاريخ
٥٧ العبر في اخبار البشر
٥٨ 〃 〃 خبر من غبر (لعله ماقبله)
٥٩ العرش
٦٠ العلو
٦١ فتح المطالب في اخبار علي بن ابي طالب
٦٢ فضل الحج وافعاله
٦٣ قض نهارك بأخبار ابن المبارك
٦٤ الكاشف (اختصار التذهيب)
٦٥ الكبائر
٦٦ كسروشن رتن الهندي ؟
٦٧ اللباس
٦٨ المجرد في اسماء رجال الكتب الستة (في ذيل تذكرة الحفاظ: المجرد)
٦٩ مختصر ذيل ابن الدبيثي
٧٠ 〃 في القراءات
٧١ مسألة السماع
٧٢ مسألة الغيب
٧٣ المستحلى اختصار المحلى
٧٤ المستدرك على مستدرك الحاكم
٧٥ المشتبه في الأسماء والأنساب والكنى والالقاب
٧٦ معجم اشياخه وهو ١٣٠٠ شيخ (كبير وأوسط وصغير)
٧٧ المعجم المختص
٧٨ المقتنى في الضعفا
٧٩ المقتنى في الكنى
٨٠ من تكلم فيه وهو موثق
٨١ الموت وما بعده
٨٢ ميزان الاعتدال (ثلاثة اجزاء)
٨٣ نبأ الدجال
٨٤ نعم السمر في سيرة عمر
٨٥ نفض الجعبة في اخبار شعبة
٨٦ هالة البدر في عدد اهل بدر

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

هذا وقد أعجبتني في الدلالة على براعته في فنه كلمة السبكي اذ قال فيه: «كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنها اخبار من حضرها.» كذلك كان رحمه الله.

شيء من نظمه

لعل من تمام الصورة ان نعرض ما عرضه مترجموه من شعره، فلا مفر لك من أن تجد في كتب الرجال عندنا آخر كل ترجمة وان لم يكن صاحبها شاعراً قولهم: ومن شعره. وقد حلا لي أن أحيي هنا هذا التقليد احتراماً لمترجمنا الذي كان أحد زعمائه الكبار. كان شعره رحمه الله شعر فقيه تغلب فيه آثار صنعته، ولا غرابة في ذلك، فأشد شيء أثراً في المرء ما وقف حياته ليلها ونهارها على الاشتغال فيه:

قال التاج السبكي انشدنا شيخنا الذهبي من لفظه لنفسه:

تولى شباب كأن لم يكن ... وأقبل شيب علينا تولى
ومن عاين المنحنى والنقا ... فما بعد هذين الا المصلى[1]

وانشدنا لنفسه وارسل بها معي الى الوالد (يعني تقي الدين بن السبكي) رحمه الله وهي فيما أراه آخر شعر قاله لأن ذلك كان في مرض موته؛ قبل موته بيومين او ثلاثة:

تقي الدين يا قاضي الممالك ... ومن نحن العبيد له وانت مالك
بلغت المجد في دين ودنيا ... ونلت من العلوم مدى كمالك
ففي الاحكام أقضانا علي ... وفي الخدام مع أنس بن مالك
وكابن معين في حفظ ونقد ... وفي الفتيا كسفيان ومالك
وفخر الدين في جدل وبحث ... وفي النحو المبرد وابن مالك
وتسكن عند رضوان قريباً ... كما زحزحت عن نيران مالك

(١) طبقات الشافعية ٥:٢١٦

لتعطى في اليمين كتاب خير ولا تعطى كتابك في شمالك
تشفع في أناس في فراك لتكسوهم ولو من رأس مالك

وذكر بعدها ابياتاً على هذا النمط تتعلق بمدحي لم اذكرها وختمها بقوله :

والذهبي إدلال الموالي على المولى بحلمك واحتمالك[١]

وله منظومة في المدلسين انظرها في الطبقات المذكورة (٥ : ٢١٨)

مآخذ العلماء عليه :

من الواجب ان نذكر هنا ما اخذه عليه بعض العلماء : فقد ذهبوا الى انه يقع أحياناً فيمن خالفه وأحياناً يطوي ذكره أو لا يوفيه حقه ، فاذا كان المترجم حنبلياً أفاض في تقريظه . ومعاصروه أدرى بنصيب المبالغة من هذا الحكم ، إلا أني ارى من الطرافة ان انقل كلام تلميذه السبكي صاحب الطبقات الذي قدمنا لك اعجابه به ورثاءه له . ولعل القارئ لا ينسى ان السبكي أيضاً شديد الميل والعصبية الى الشافعية قال : « وكان .. شديد الميل الى آراء الحنابلة ، كثير الازراء بأهل السنة الذين اذا حضروا كان ابو الحسن الأشعري فيهم مقدم القافلة ، فلذلك لا ينصفهم في التراجم ، ولا يصفهم الا وقد رغم منه أنف الراغم : صنف التاريخ الكبير وما أحسنه لولا تعصب فيه[٢] »

* * *

« وقد انتقده على خطته في تراجم الناس انتقاداً مراً الحافظ ابن المرابط محمد بن عثمان الغرناطي والتاج ابن السبكي ونسباه الى التعصب المفرط ولا تخلو خطته في التراجم من ذلك لا سيما في تراجم الحشوية ومخالفيهم ، لبعده عن المعقول والعلوم النظرية واكتفائه بالرواية والسماع كما هو شأن غالب الرواة المنصرفين الى السماع والرواية من صغرهم قبل النظر في مبادي العلوم سامحه الله . وقال ابن الوردي في تاريخه : « واستعجل قبل الموت فترجم في تواريخه الأحياء المشهورين بدمشق وغيرها

(١) المصدر السابق ص ٢١٨ (٢) طبقات الشافعية ٥ : ٢١٧

واعتمد في ذكر سير الناس على احداث يجتمعون به وكان في أنفسهم شيء من الناس فآذى بهذا السبب في مصنفاته أعراض خلق من المشهورين[١] . اه

هذا قولهم فيه ، وقلما أرخ مؤلف لمعاصريه إلا كثر فيه الكلام ، والمرء يخضع للضعف البشري حين يتكلم على من له معهم العلائق ، وهو متأثر لا شك برضاه وغضبه على رغمه ، مهما اجتهد في الانصاف ؛ وانما يؤاخذ الله المرء بنيته وهو بعد يخطئ ويصيب . وهؤلاء الذين انتقدوه يخالفونه فيما ذهب اليه من مذهب ، فمن ثمّ كان رأيهم فيه موضع نظر . وما اكثر من كان عرضة للاتهام بعداء اهل السنة كلما أراد إصلاحاً ، أو نبذاً لبدعة شائعة ، او نقداً لخطئ تعتقد فيه العامة .

قيمة هذه الرسالة من سير النبلاء :

سير النبلاء[٢] كما في غالب المصادر عشرون مجلداً ، ذكره حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون فقال : « هو من جملة ما اختصره من تاريخه الكبير في نحو عشرين مجلداً مرتباً على التراجم بحسب الوفيات وله عليه ذيل في مجلد . وذيله ايضاً الحافظ تقي الدين محمد بن احمد الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢ هـ » ولصاحب « نكت الهميان » كلمة في التعريف به تفيدنا في معرفة الصورة التي رتب فيها الذهبي هذا الكتاب قال : « وله في تراجم الأعيان لكل واحد مصنف قائم الذات مثل الائمة الاربعة ومن جرى مجراهم لكنه أدخل الكل في تاريخ النبلاء[٣] »

فعلى هذا يكون سير النبلاء مجموعاً من كتب كثيرة عددها يساوي عدد المترجمين فيه ، واذاً تكون رسالتنا التي ظفرنا بها عن ابن حزم أحد هذه الكتب ، وبه نعرف نسق هذا الكتاب الجليل في جزء مهم منه .

قابلت هذه الرسالة بما في تذكرة الحفاظ للمؤلف نفسه عن ابن حزم ، فوجدت خلافاً يسيراً

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ الحاشية . (٢) وقد يسمى سير اعلام النبلاء ، وتسميه بعض المصادر : تاريخ العلماء والنبلاء (فوات الوفيات) وبعضها : تاريخ النبلاء : « نكت الهميان وفوات الوفيات »

(٣) هذه الكلمة نفسها في فوات الوفيات

في الترتيب وتفاصيل زائدة ، ورأيت اسلوب اهل الحديث في رسالتنا هذه أظهر ، وفنهم فيها أغلب . فستعرف منها أعلى سند عند ابن حزم وأنزل سند ، وأجود سند ، ولا يدع الذهبي ان يذكر لنا سنده الى ابن حزم ... ثم النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث . فنغتبط اذ نرى اعلام الحجاز والعراق والشام والاندلس واحياناً مصر والمغرب في سند واحد وهو شيء طريف حقاً .

وفيها بعض أشعار لم اجدها في مصدر أصلاً على كثرة المصادر التي اطلعت عليها حين دراستي لابن حزم ، وسأشير الى ذلك اذا وصلت اليه .

اما المزية الظاهرة لهذه الرسالة فهي في حفظ كثير من اسماء مؤلفات ابن حزم فقد ذكر منها نحو السبعين على حين لم استطع ان اجمع في كتابي عن (ابن حزم) أكثر من ثلاثة وخمسين كتاباً وبعضها لا ذكر له في هذه السبعين ، وهي بين كتاب ضخم يبلغ خمسة عشر الف ورقة وجزء قد لا يعدو الأوراق . والذي يدعو الى الغرابة ان يكون بين هذه المؤلفات خمسة عشر في الطب خاصة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويستطرد الذهبي في رسالته هذه فيذكر كلاماً نفيساً في الاجتهاد والتقليد والرياء وأنه داء الفقهاء والتجار الاسخياء والواقفين والمجاهدين ... فيبدو لنا جديداً في اسلوبه يعنى بعض العناية بالتحليل النفسي والمناقشة المنطقية .

ويؤخذ عليه ما يؤخذ على اكثر مؤلفات عصره : شيء من الفوضى في الترتيب وتداخل في الموضوعات لا يصل الى حد تشتيت الذهن ، الا انه في ذلك هنا خير منه في تذكرة الحفاظ . وعدد شيوخ ابن حزم في تذكرة الحفاظ أوفى .

وهذا أوان الشروع في نشر الرسالة : [1]

---

(١) مزية النسخة التي استنسخها لي الشيخ محمد نصيف انها عن نسخة كتبت في عصر المؤلف وقرئت عليه وعليها خطه . الا انها كثيرة التصحيف وفيها نقص في بعض المواضع وقد توخيت الى وجه الصواب فيها في غير صعوبة ؛ لأن كثيراً من المصادر التي نقل عنها الذهبي ميسورة لنا وساعدني على ذلك اشتغالي السابق بالموضوع ، وأنا اذاً لا أشير الا الى القليل من الخطأ في الاصل . وقد قسمت الرسالة الى موضوعات صغرى جعلتها بين معقوفتين [ ]

نموذج من خط الذهبي صاحب سير النبلاء

سماع بخط الذهبي نفسه على كتابه (الإعلام بوفيات الأعلام)
المحفوظ بدار الكتب الظاهرية (مجموع ١١٦/١١)

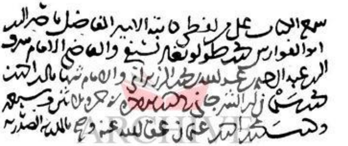

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونصه : سمع الكتاب علي من لفظي كاتبه الأمير الفاضل ناصر الدين ابو الفوارس محمد بن طولوبغا السيفي والقاضي الإمام شرف الدين عبد الرحيم بن عبد الله بن محمد الزريراني والإمام شهاب الدين أحمد بن محمد بن سلمان ابن الشرجاني في جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ·

وكتب محمد بن احمد بن عثمان عفا الله عنه وصح بالمدرسة الصدرية ·

ترجمة ابن حزم منقولة من سير النبلاء للذهبي

الحمد لله

[نسبه ومولده]

ابن حزم الأوحد البحر ذو الفنون والمعارف أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان (١) بن حرب الاموي المعروف بيزيد الخير نائب أمير المؤمنين أبي حفص عمر على دمشق ، الفقيه الحافظ المتكلم الأديب الوزير الظاهري صاحب التصانيف .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان جده يزيد مولى للأمير يزيد أخي معاوية ، وكان جده خلف ابن معدان هو أول من دخل الاندلس في زمن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل .

ولد أبو محمد بقرطبة في سنة أربع وثمانين وثلثمائة .

[شيوخه وتلاميذه]

وسمع في سنة أربعمائة وبعدها من طائفة منهم يحيى بن مسعود بن وجه الجنة صاحب قاسم بن أصبغ فهو أعلى شيخ عنده . ومن أبي عمر أحمد بن

(١) في الأصل بن سفيان والتصحيح عن ارشاد الأديب وتذكرة الحفاظ .

محمد الجسور ويونس بن عبد الله بن مغيث القاضي وحمام[١] بن أحمد القاضي ومحمدبن سعيد بن نبات وعبد الله بن ربيع التميمي وعبد الرحمن بن عبد الله ابن خالد وعبد الله بن محمدبن عثمان وأبي عمر أحمد بن محمد الطلمنكي وعبدالله ابن يوسف بن نامي وأحمد بن قاسم بن أصبغ . وينزل الى أن يروي عن أبي عمر بن عبد البر واحمـد بن عمر بن أنس العذري ، وأجود ماعنده من الكتب سنن النسائي بحمله عن ابن ربيع عن ابن الاحمر عنه[٢] ، وأنزل ماعنده صحيح مسلم بينه[٣] وبينه خمسة رجال ، وأعلى مارأيت له حديث بينه وبين وكيع فيه ثلاثة أنفس .

حدث عنه ابنه أبو رافع الفضل وأبو عبد الله الحميدي وولد القاضي أبي بكر [بن] العربي وطائفة ، وآخرمن[٤] روى عنه مروياته بالإجازة أبو الحسن[٥] شريح بن محمد .

[نشأته ونبوغه]

نشأ في تنعم ورفاهية ورزق ذكاء مفرطًا وذهنًا سيالاً وكتبًا نفيسة كثيرة . وكان والده من كبراء اهل قرطبة عمل الوزارة في الدولة العامرية وكذلك وزر أبو محمد في شبيبته . وقد مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر

(١) في الأصل : بهام . والتصحيح عن الصلة لابن بشكوال ص ١٥٦ ورقم الترجمة ٣٤٧
(٢) يعني عن النسائي . (٣) يعني : بين مسلم وبينه . (٤) في الأصل : وآخرين . (٥) في الأصل أبو الحسن بن شريح والتصحيح عن تذكرة الحفاظ إذ جاء ذكره في حديث يرويه الذهبي عن أبي القاسم احمد بن يزيد القاضي عن أبي الحسن شريح بن محمد الرعيني هذا عن ابن حزم . (٣ : ٣٢٩)

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي المنطق وأجزاء الفلسفة فأثرت به تأثيراً ليته سلم من ذلك ، ولقد وقفت له على تأليف يحض فيه على الاعتناء بالمنطق وتقدمه على العلوم فتألمت له : فإنه رأس في علوم الإسلام ، متبحر في النقل ، عديم النظير على يبس فيه وفرط ظاهرية في الفروع لا الأصول . قيل إنه تفقه أولاً للشافعي . ثم أداه اجتهاده الى القول بنفي القياس كله : جليه وخفيه والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث ، والقول بالبراءة الأصلية واستصحاب الحال . وصنف في ذلك كتباً كثيرة وناظر عليه وبسط لسانه وقلمه ، ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب بل فحج [1] العبارة وسب وجدّع [2] فكان جزاؤه من جنس فعله : بحيث أنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة وهجروها ونفروا منها وأحرقت في وقت ، واعتنى بها آخرون من العلماء وفتشوها انتقاداً واستفادة وأخذاً ومؤاخذة ، ورأوا فيها الدر الثمين ممزوجاً في الرصف بالخرز المهين ، فتارة يطربون ومرة يعجبون ومن تفرده يهزؤون . وفي الجملة فالكمال عزيز ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان ينهض بعلوم جمة ويجيد النقل ويحسن النظم والنثر وفيه دين وخير ، ومقاصده جميلة ومصنفاته مفيدة . وقد زهد في الرياسة ولزم منزله مكباً على العلم ، فلا نغلو فيه ولا نجفو عنه ، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار :

(١) فحج : تكبر . ولعل (في) ساقطة قبل كلة : العبارة (٢) جدعه تجديعاً : قال له : (جدعاً لك) والجدع الحبس وقطع الأنف أو الأذن أو اليد ـ القاموس

قال أبو حامد الغزالي : « وجدت في أسماء الله كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه »

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد : « كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه [1] من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار . أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة [2] . »

قال أبو عبد الله الحميدي : « كان ابن حزم حافظاً للحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، متفنناً في علوم جمة ، عاملاً بعلمه ، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين . وكان له في الأدب والشعر نفس واسع وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير جمعته على حروف المعجم . »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

[تركه الوزارة وإقباله على العلم]

وقال أبو القاسم صاعد : « كان أبوه أبو عمر من وزراء المنصور محمد ابن أبي عامر مدبر دولة المؤيد بالله بن المستنصر المرواني ثم وزر للمظفر ، ووزر أبو محمد للمستظهر عبد الرحمن بن هشام ثم نبذ هذه الطريقة وأقبل على العلوم الشرعية وعني بعلم المنطق وبرع فيه ثم أعرض عنه (قلت: ما أعرض

(١) في الأصل : حفظه والتصحيح عن تذكرة الحفاظ ـ هـذا ولم نجد الجملة بهذه العبارة في طبقات الأمم المطبوع لصاعد (٢) زاد صاعد : وهذا شيء ماعلمناه من أحد كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر بن جرير الطبري فانه أكثر أهـل الإسلام تأليفاً ـ طبقات الأمم ص ١١٠ (مطبعة السعادة)

عنه حتى زرع في باطنه أموراً وانحرافاً عن السنة ، قال :) وأقبل على علوم الإسلام حتى نال من ذلك ما لم ينله أحد بالأندلس قبله . »

[حملة خصومه عليه وانصاف الذهبي له]

وقدحط أبو بكر بن العربي على أبي محمد في كتاب (القواصم والعواصم) وعلى الظاهرية فقال : « هي أمة سخيفة تسورت على مرتبة ليست لها وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكم علي رضي الله عنه يوم صفين فقالت : (لا حكم إلا لله) . وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم نشأ وتعلق بمذهب الشافعي ثم انتسب الى داود ثم خلع الكل واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة : يضع ويرفع ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ماليس فيه ويقول عن العلماء مالم يقولوا تنفيراً للقلوب منهم ، وخرج عن طريق المشبهة في ذات الله وصفاته فجاء فيه بطوام . واتفق كونه بين [1] قوم لا بصر لهم إلا بالمسائل فإذا طالبهم بالدليل كاعوا [2] فيتضاحك مع أصحابه منهم ، وعضدته الرياسة بما كان عنده من أدب ، وبشبه كان يوردها على الملوك ، فكانوا يحملونه ويحمونه بما كان يلقي إليهم من شبه البدع والشرك . وفي حين عودي [3] من الرحلة ألفيت حضرتي منهم طافحة ، ونار ضلالهم لافحة ، فقاسيتهم مع غير أقران وفي عدم أنصار ، إلى حساد يطؤون عقبي ، تارة تذهب لهم نفسي ، وأخرى

(١) في الأصل من والتصحيح عن تذكرة الحفاظ للذهبي (٢) كاعوا : خافوا وجبنوا
(٣) في الأصل : عوده ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن تذكرة الحفاظ

ينكشر لهم ضرسي ، وأنا مابين إعراض عنهم او تشغيب بهم . وقد جاءني رجل بجزء لابن حزم سماه (نكت الاسلام) فيه دواهي فجردت عليه نواهي ، وجاء في آخر برسالة (في الاعتقاد) فنقضتها بـ (رسالة العزة) والأمر أفحش من أن ينقض . يقولون : لا قول إلا ماقال الله ولانتبع إلا رسول الله ، فإن الله لم يأمر بالاقتداء بأحد ولا بالاهتداء بهدي بشر . فيجب أن يتحققوا أنهم ليس لهم دليل وإنما هي سخافة في تهويل ، فأوصيكم بوصيتي : ألا تستدلوا عليهم وان تطالبوهم بالدليل ، فإن المبتدع إذا استدللت عليه شغب عليك وإن طالبته بالدليل لم يجد إليه سبيلاً . فأما قولهم : (لا قول إلا ماقال الله) فحق ولكن أرني ماقال ، وأما قولهم : (لا حكم إلا لله) فغير مسلم على الإطلاق ، بل من حكم الله أن يجعل الحكم لغيره فيما قاله وأخبر به . مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (وإذا حاصرت أهل حصن فلا تنزلهم على حكم الله لأنك لاتدري ماحكم الله ولكن أنزلهم على حكمك) وصح انه قال : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء ... الحديث . » اه

قلت : لم ينصف القاضي أبوبكر رحمه الله شيخ أبيه في العلم ، ولا تكلم فيه بالقسط ، وبالغ في الاستخفاف به ، وأبو بكر فعلى عظمته في العلم لايبلغ رتبة أبي محمد ولا يكاد ، فرحمهما الله وغفر لهما .

[سبب طلبه العلم ، وبلوغه فيه درجة الاجتهاد]

قال اليسع بن حزم الغافقي – وذكر أبا محمد – فقال : « أما محفوظه فبحر عجاج وماء ثجاج ، يخرج من بحره مرجان الحكم ، وينبت بثجاجه

ألفاف النعم في رياض الهم ، لقد حفظ علوم المسلمين وأربى [1] على كل أهل دين ، وألف الملل والنحل ، وكان في صباه يلبس الحرير ولا يرضى من المكانة إلا السرير . أنشد المعتمد فأجاد وقصد بلنسية وبهـا المظفر احد الأطواد . وحدثني عمر بن واجب قال : بينما نحن عند أبي ببلنسية وهو يدرس المذهب إذ بأبي محمد بن حزم يسمعنا ويتعجب ، ثم سأل الحاضرين مسألة من الفقه جووب [2] فيها فاعترض في ذلك ، فقال له بعض الحضار : (هذا العلم ليس من منتحلاتك) فقام وقعد ، ودخل منزله فعكف ، وو كف منه وابل فما كف ، وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة وقال فيها : « أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب . »

[كلام الذهبي في الاجتهاد]

http://Archivebeta.Sakhrit.com

قلت : نعم من بلغ رتبة الاجتهاد وشهد له بذلك عدد من الأئمة لم يسغ له أن يقلد ، كما أن الفقيه المبتدي والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه لا يسوغ له الاجتهاد أبداً ؛ فكيف يجتهد ؟ وما الذي يقول ؟ وعلام يبني وكيف يطير ولما يريش . والقسم الثالث الفقيه المنتهي اليقظ الفهم المحدث الذى قد حفظ مختصراً في الفروع وكتاباً في قواعد الأصول وقرأ النحو وشارك في الفضائل مع حفظه لكتاب الله وتشاغله بتفسيره وقوة مناظرته . فهذه رتبة من بلغ الاجتهاد المقيد [3] وتأهل للنظر في دلائل الأئمة ، فمتى وضح له الحق في مسألة وثبت فيها النص وعمل بها أحد الأئمة الأعلام كأبي حنيفة

(١) في الأصل أزكى وهو تصحيف والتصحيح عن تذكرة الحفاظ (٢) هي في الأصل بواو واحدة
(٣) في الأصل : والتقيد

مثلاً أو كمالك أو الثوري أو الأوزاعي أو الشافعي وأبي عبيد وأحمد وإسحق .. فليتبع فيها الحق ولا يسلك الرخص، وليتورع ولا يسعه فيها بعد قيام الحجة عليه تقليد. فإن خاف من تشغب عليه من الفقهاء فليتكتم بها، ولا يتراءى بفعلها، فربما أعجبته نفسه وأحب الظهور فيعاقب ويدخل عليه الداخل من نفسه. فكم من رجل نطق بالحق وأمر بالمعروف فيسلط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده وحبه للرياسة الدينية، فهذا داء خفي سار في نفوس الفقهاء، كما أنه داء سار في نفوس المنفقين من الأغنياء وأرباب الوقوف والترب المزخرفة، وهو داء خفي يسري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين: فتراهم يلتقون العدو ويصطدم الجمعان وفي نفوس المجاهدين مخبأة وكامن من الاختيال وإظهار الشجاعة ليقال.. ولبس العراقي [1] المذهبة والخوذ المزخرفة والعدد المحلاة.. على نفوس متكبرة وفرسان متجبرة. وينضاف إلى ذلك إخلال بالصلاة وظلم الرعية وشرب المسكر، فأنى ينصرون؟ وكيف لا يخذلون؟ اللهم فانصر دينك، ووفق عبادك. فمن طلب العلم للعمل كره العلم وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والافتاء والفخر والرياء تحامق واختال، وازدرى بالناس وأهلكه العجب ومقتته الأنفس

قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها (أي دسسها بالفجور والمعصية. قلبت فيه الألف سيناً).

يتبع — سعيد الأفغاني

(١) العرقية: ما يلبس تحت العمامة والقلنسوة، مولدة ـ التاج، وفي الأصل: العراقي وهي تصحيف

مميزات بني أمية (١)

سيداتي ، آنساتي ، سادتي

فضل بني أمية على قريش

لو حاول باحث ان يتحدث اليكم في موضوع مميزات بني أمية حتى يصورهم صورة تامة في الجملة لاحتاج الى بضع محاضرات ، ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله . قال النسابون واصحاب السير والتراجم : إن أمية تصغير أمة ، والأمة المملوكة ، والنسب اليه أموي بضم الهمزة فأما من قال أموي بالفتح فقد أخطأ . وبنو أمية من أشرف قبائل قريش يلتقي نسبهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام في جدهم عبد مناف . ومناف اسم صنم في الجاهلية مثل العزى واللات ومناة وودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وأمية الاكبر هو من ولد عبد شمس بن عبد مناف وولده حرب وابو حرب وسفيان وابو سفيان وعمرو وابو عمرو ، وهؤلاء يقال لهم العنابس أي الأسود . ومن ولده العاص وابو العاص والعيص وابو العيص ، وهؤلاء يدعونهم الأعياص ؛ وأعياص قريش كرامهم ، يقال ما أكرم عيصه وهم آباؤه واعمامه وأخواله وأهل بيته .

وكان هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل أولاد عبد مناف بن قصيّ هم الذين يذهبون في التجارة الى البلاد المجاورة . يحمل هاشم الإيلاف لرؤساء القبائل ؛ والإيلاف العهد وشبه الاجازة بالخفارة ، وهو عبارة عن شيء من الربح ، ويجعل لهم مع ذلك متاعاً مع متاعه ، ويسوق اليهم إبلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ، ويكفي قريشاً مؤونة الأعداء ، فكان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً . والى هذا

(١) محاضرة القاها الاستاذ محمد كرد علي في مدرّج الجامعة السورية بدمشق يوم ٣ ذي القعدة ١٣٥٨ و ١٤ كانون الأول ١٩٣٩

الإيلاف الاشارة في سورة قريش (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) والمعنى انه تعالى منّ على قريش بما انعم عليهم من الايلاف الذي به كانوا يمتارون ويتجرون ولا يجوعون ، يرحلون رحلتين رحلة في الصيف وأخرى في الشتاء آمنين من اصحاب الفيل الذين جاءوا من الحبشة الى اليمن ليستولوا على البيت ·

وكان هاشم يرحل الى الشام ويقصد الى غَزّة ، وبه سميت غزة هاشم وبها مات ، كما مات حرب بن أمية أيضاً في الشام ، وكان المطلب يرحل الى اليمن ، ونوفل الى فارس ، وعبد شمس الى أكسيوم من ارض الحبشة · فبنو أمية هم الذين هيأوا اسباب التجارة لقريش وانقذوهم من الغصوب ، أي من اخذ مال غيرهم ظلماً وعدواناً · وادخلوا مكة في طور مدني بعد ان كان عيش أهلها معقوداً بظبات السيوف وأسنة الرماح ، وبهم عُرفت قريش في ارض الروم والعجم والحبش ، وعرفوا هم العراق والشام واليمن والحبشة معرفة جيدة ، فبنو عبد مناف هم الذين كانوا اذاً يؤلفون الجوار ويجيرون قريشاً بميرهم ، وكانوا لذلك يسمون المجبرين ، والعرب تسميهم اقداح النضار لطيب أجسامهم وكرم فعالهم ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مكانة أبي سفيان بن حرب

وكان ابو سفيان (صخر بن حرب) — والد معاوية ويزيد وزياد وعتبة وام حبيبة وجويرية — تاجراً عظيماً يجهز التجار بماله واموال قريش الى الشام وغيرها من ديار العجم ، وكان يخرج احياناً بنفسه ، وكانت اليه راية الرؤساء التي تسمى العقاب · واذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس ، والعقاب العلم الضخم يعقد للولاة · وقاد ابو سفيان قريشاً كلها يوم أحد ولم يَقدْها قبل ذلك رجل واحد إلا يوم ذات نكيف ، قادها المطلب ، ويومُ نَكيف وقيل ذي نكيف وقعة كانت بين قريش وبني كنانة بناحية يَلملم من نواحي مكة ، فهزمت قريش بني كنانة ، وكان صاحب امرها عبد المطلب او المطلب · وابو سفيان كان يوم أحد

ويوم الاحزاب رأس من حاربوا الرسول . ولما كان عائداً في تجارة قريش من الشام أمسك المسلمون عليه الطريق فأبلى بلاء حسناً حتى انقذ اموال التجار ، وكانت تقدر بخمسين الف دينار . وكان اذا ورد بلاد الروم اكرمه الأمراء والأعيان لمكانته في قومه . وكان قبل الاسلام يملك في البلقاء جنوبيّ الشام ضيعة يقال لها نقنّس . وكان في الجاهلية هو وعتبة وابو جهل أفضل الناس رأياً .

حارب ابو سفيان رسول الله يوم كان يصعب عليه ، اول الدعوة ، ان يتزل عن ارستقراطيته وامرته .

وقيل ان معاوية ويزيد اسلما قبل ابيهما ، وكتما عنه اسلامهما ، وكذلك ابنته ام حبيبة واسمها رملة زوجة الرسول اسلمت قبل ابيها . وكانت تحت عبيد الله ابن جحش ، هاجرت معه الى ارض الحبشة فتنصر زوجها ، وثبتت هي على الاسلام ، فبعث الرسول عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ، فخطب عليه ام حبيبة فزوجها اياه ، واصدقها النجاشي من عنده عن رسول الله اربعمائة دينار . وزار ابو سفيان ابنته ام حبيبة لما قدم المدينة ليعلم الرسول ان يزيد في هدنة الحدَيبية ، ودخل على ابنته فأراد ان يجلس على فراش النبي فطوته دونه ، فقال : يا بُنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله وانت امرؤ نجس مشرك فقال : يا بنية لقد أصابك بعدي شر .

وكان قبل اسلامه هو واولاده من المؤلفة قلوبهم يعطيهم الرسول من الغنائم والأموال ما يتألف به قلوبهم . وأسلم قبيل فتح مكة فقال العباس : يا رسول الله انه (أي أبو سفيان) يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه فقال : من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن . فلما دخل في الاسلام دين المساواة ، حارب مع رسول الله يوم حُنين والطائف ، وحارب يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد ، كان يقاتل ويقول يا نصر الله اقترب ، يا نصر الله اقترب . وكان يقف على الكراديس يقصّ أي يقف أمام سرايا العسكر ويعظ ؛ والقاص الداعية .

تميز نساء بني أمية

وتطور ابو سفيان لما أسلم ، واخلص في انتحال الدين الجديد ، كما كان مخلصاً من قبل في دينه القديم ، وابدى براعة حربية في الاسلام كان يبدي مثلها في الجاهلية . قال ابو سفيان للنساء اللاتي مع المسلمين يوم اليرموك — واليرموك النهر الذي كانت عنده الوقعة الفاصلة بين العرب والروم ، وبهما فتح الشام كله جنوبه وشماله — وكان كثير من المهاجرات حضرن يومئذ مع أزواجهن وابنائهن وجلسن خلف صفوف المقاتلين : لا يرجع اليكن احد من المسلمين الا رميتنه بهذه الحجارة وقلتن له : من يرجوكم بعد الفرار عن الاسلام واهله ، وعن النساء وهن امام العدو . ولما حمي الوطيس واستقبل النساء مُبرِعان من انهزم من المسلمين أخذن يضربن وجوههن بعمد البيوت او عمد الفساطيط ويرمينهم بالحجارة ويقلن : أين أين عن الاسلام والأمهات والأزواج .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان لنساء بني أمية وغيرهن مثل جويرية ابنة أبي سفيان وكانت مع زوجها ، ومثل هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان ومثل أم حكيم بنت الحرث بن هشام ، وهذه قتلت سبعة من الروم في مرج الصفر بعمود الفسطاط ، وكانت عروساً ، والخلوق على جسمها تنبعث رائحته — كان لهن من البلاء العظيم يوم اليرموك ما يذكر بالفخر على وجه الدهر : قاتلن بالسيوف حتى سابقن الرجال ، وكان النساء في الجيوش العربية يعملن في طهي طعام المحاربين ، وجلب الماء اليهم ، وغسل ثيابهم ، وتضميد جراحهم ، وتمريض مرضاهم ، وغير ذلك مما تعمله اليوم أعظم نساء الغرب لرجالهم في الحرب .

ويحدثنا المؤرخون انه ما فتحت بلدة في الشام الا وجد على أسوارها وفي ارباضها كثير من رجال بني أمية صرعى ، لكثرة ما عانوا من الجهاد في فتحها . وتدرب يزيد ومعاوية من أبناء أبي سفيان في السياسة والادارة ، وكان معاوية كاتب الوحي ، وكان عمر اذا نظر اليه قال : هذا كسرى العرب . وعقد ابو بكر في خلافته

ليزيد بن ابي سفيان ، وكان يقال له يزيد الخير مع أمراء الجيوش الى الشام وقال : ان اجتمعتم في كيد فيزيد على الناس ، وإن تفرقتم فمن كانت الواقعة مما يلي عسكره فهو على أصحابه ، وشيعه الصديق راجلاً وهو راكب وجعل يوصيه ، ولما مات يزيد في طاعون عمواس (سنة ١٨) ، وهو الطاعون الذي هلك به في الشام ألوف من الصحابة وغيرهم ، ضمّ عمر بن الخطاب لمعاوية ما كان من عمل أخيه يزيد ، وهو إمارة دمشق فصارت الشام لمعاوية . اما زياد ابنه الثالث فكان من أدهى العرب ، ومن أعظم رجال الادارة الذين انبغهم الاسلام ، عزله عمر بن الخطاب فقال زياد : أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين ام عن خيانة ؟ فقال : لا عن ذلك ولا عن هذا ، ولكني كرهت ان احمل على العامة فضل عقلك .

منن بني أمية على العرب وتمدينهم

ولقد كان لأبي سفيان وأبيه حرب منة عظيمة على العرب في الجاهلية ، وذلك بنقلهما الخط الى جزيرة العرب من الحيرة ، وما كان الخط معروفاً في الحجاز ، فأثبتا بهذا ان بيتهما النبيل مصدر حضارة أيضاً ، ولأحد رجال بني أمية منة أخرى في الاسلام تعد عظيمة جداً في بابها ، وهي ان امير المؤمنين عثمان بن عفان جمع القرآن ، فنسخه من الصحف وارسل المصاحف التي كتبت منه الى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة وابقى عنده مصحفاً سموه الإمام ، ولولا عمله المجيد لضاع بعض آيات الكتاب العزيز لاعتياد العرب على الحفظ أكثر من الكتابة ، وكان بعض الصحابة يحفظون ما لا يحفظه غيرهم ، فاذا اتفق ان مات أحدهم يخشى أن يضيع ما كان يحفظه .

وكان امير المؤمنين عثمان يكرم حَرْملة بن المنذر الطائي ، وكان شاعراً نصرانياً يعلم بسير ملوك العجم . وأتى أمير المؤمنين معاوية بأمد بن أبد الحضرمي وبعَبيد بن شَرْية الجرهمي من اليمن يقصان عليه اخبار ملوك العرب والعجم ، وامر بتدوين

ما كانا يوردان عليه ، فكان أول من بدأ بتدوين التاريخ في الاسلام ، واستصفى معاوية كعب الأحبار لكثرة علمه ، وكان يعطف كثيراً على الشاعر سعيد بن عريض بن عادياء أخي السموءل بن عادياء من يهود الحجاز . وحفيد معاوية خالد بن يزيد ، وكان يدعى عالم قريش ، هو الذي زهد في الخلافة كما زهد فيها أخوه معاوية الصغير من قبل وصرف وقته في ترجمة كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب والحرب والصناعات من اللغات القبطية والسريانية واليونانية ، وهو أول من أنشأ خزانة كتب في الاسلام ، والغالب انها كانت في دمشق . وامير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز الأُموي هو الذي دوّن الحديث وأمر بترجمة كتاب في الطب لينتفع به الناس .

ولو لم يكن بنو أمية على جانب عظيم من النبوغ ومعرفة ثاقبة بحكم الناس ماوسد اليهم الرسول الولايات والأعمال العظيمة ، وقد انتقل الى جوار ربه واكثر عماله منهم ، وما كان فيهم أحد من بني هاشم ، وما استطاع الخليفتان الأولان ابو بكر وعمر ان ينقضا ما أبرمه الرسول من ذلك . والوظائف الكبرى توسد في الدول لمن يوثق بهم ، ويعرفون روح الدولة اكثر من غيرهم ، والادارة يبرع فيها المتمرنون عليها ، وبنو أمية كانوا أمراء في الجاهلية وكانوا كذلك في الإسلام ، تناقلوا فيهم حكم الناس كابراً عن كابر .

ميزات معاوية

تولى معاوية الشام أربعين سنة ، عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة . وجاء عمر بن الخطاب الى الشام مرة فتلقاه معاوية في موكب عظيم ، فسأله عن سبب هذه الأبهة التى اصطنعها فقال : إننا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتني به أقمت عليه ، وان نهيتني عنه انتهيت ، فلم يأمره به ولم ينهه . أي أن معاوية اقنع خليفة مثل عمر بن الخطاب الذي كان لا يرى الا الخشونة لنفسه ولعماله ، بتقليد الروم في ظاهرهم . وما حاد معاوية عن

الأصول التي وضعها عمر بن الخطاب في الادارة ، بل أدخل فيها أموراً اقتضاها الزمان والمكان ، ففتح صدره لكل ما استحسنه مما كان عند الأمم المجاورة ، وكانت العرب لا تعرفه ، فأخرج الادارة بذلك من سذاجة البداوة الى بحبوحة الحضارة .

ما كان معاوية يصدر الا عن مشورة ولا يأتمن في ادارة الولايات والأعمال إلا الكفاة من أهل بيته غالباً ، ويستشير ارباب الرأي من انصار دولته ، وكان له منهم مجالس اشبه بمجالس النواب والشيوخ ، ومجالس في الولايات يدعونها مجالس الوفود . واستخدم النصارى في مصالح الدولة ، وكان عمر يمتنع من استخدامهم أو يسلموا ، فعهد الى سرجون بن منصور ثم الى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام بادارة أمواله ، أي أن بني سرجون كانوا وزراء المال لمعاوية . وكان في جيشه الانباط والجراجمة والعجم وغيرهم من العناصر غير العربية وغير المسلمة ، فقام بتأسيس دولته بما تقوم به الدول ولا ينافي أصول الخلافة .

ومما يعرب عن سعة عقله وأنه عملي في جميع حالاته لا يبالي بالقشور والظواهر متى أوحى اليه العقل رأياً سديداً ما ذكره المؤرخون من أن عبد الله بن قيس غنم من صقلية أصناماً من ذهب مكللة بالجوهر فحملها معاوية من دمشق وأنفذها الى البصرة ومنها الى الهند لتباع فيها لأنه رأى بيعها نافعة اكثر لثمنها ، ولم يبال انتقاد المتزمتين من المسلمين .

توفر معاوية على تحسين آلة الحكم وادخل عليها ما ينفعها ويقويها ، وتسامح ولم يضيق على نفسه ولا على أمته في ادخال التجدد وعرض على جبلة بن الأيهم سيد بني غسان — لما هرب الى الروم لأن عمر أراد ان يقتله بمن قتله — أن يعطيه الغوطة كلها اقطاعاً على أن يعود من الروم ويرجع الى الاسلام ، يريد بذلك ان يتلافى ما وقع من عمر في ذلك ويقوي الاسلام به . وبجميل سياسته أخرج الخلافة من آل علي الى بني أمية وأخذها من الحسن بن علي بمال دفعه اليه ووعود وعده بها ، وكان بذلك عام الجماعة اي اجماع المسلمين على إمام واحد .

وابتكر معاوية أموراً رأى فيها فائدة عامة منها انه أول من وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين ايديهم ، ووضع المقصورة التي يصلي فيها الخليفة منفرداً عن الناس ، والشرطة على رأسه اذا سجد ، وهو أول من اتخذ حرس الليل ، وأول من غزا في البحر وأنشأ الأسطول في صناعة صور وطرابلس ، وكان كثيراً ما يطلب من الخليفة الثاني ان يأذن له بصنع الأسطول فلا يرضى بالتوسع في ذلك ، وما سمح بركوب البحر الا للمتطوعة يبحرون برضاهم غير مكرهين ولما جاء الخليفة الثالث اطلق معاوية في بناء السفن كما أراد ، وكان معه في فتح رودس وقبرص ألف وسبعمائة سفينة ، هذا عدا السفن التي أحرقت في طرابلس بأيدي أناس من صنائع الروم ، وكان روم القسطنطينية في خوف من أسطوله في البحر ، كما يحسبون الف حساب لجيشه في البر .

بعض أعمال معاوية في اصلاح الدولة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن أهم ما قام به تنظيم الجيش ، وادخال الإصلاحات التي تزيد في قوته ، وتجعله ابداً تحت السلاح عند الطلب ، فضاعف لذلك عطاءه وارزاقه ، ووقت اوقاتاً لتناول الرواتب ، فهو اول من نظم الجيش بهذا النظام الغريب ، وجهزه بكل مايلزمه ، وجعل الجندي لا يستند في معاشه على غير رزقه من بيت المال . وكان لكل جند من اجناد الشام جيش خاص به من أهل الاقليم الذي يتألف فيه ، والجند هو ماتسميه بالفرنسية Le gouvernement militaire فمن جند دمشق ، الى جند الأردن ، الى جند فلسطين ، الى جند قنسرين . وأهم ما كانوا يهتمون له المرابطة على الحدود والثغور القريبة من ارض الروم . ولطالما ادهش معاوية الروم بصدقه كما ادهشهم بوفائه ودهائه . وقد ارتهن مرة رهائن منهم وضعهم في بعلبك ، فغدر به الروم بعد مدة ، فلم يستحل قتل من في يديه من رهنهم واخلى سبيلهم وقال : وفاء بغدر خير من غدر بغدر .

ومعاوية اول من وضع البريد ، أحضر رجالاً من دهاقين الفرس فعرفهم مايريد

فوضعوا له البريد واتخذوا له بغالاً بإكاف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه الا الخليفة او صاحب الخبر أي مدير الاستخبارات . وكان لصاحب الخبر في الاسلام شأن عظيم كما له عند الدول الحديثة . وهو الذي اخترع ديوان الخاتم وحَزْم الكتب ، ولم تكن تحزم ، وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم ، ويقال نزل بهم رجل من اهل كذا بعياله فيسميه وعياله ، فاذا فرغ من هذا القبيل اتى الديوان حتى يثبت ذلك . وبهذا كان الخليفة يحصي السكان ولا يفوته خبر المتنقلين في ربوع بلاده .

كان لمعاوية انواع من السياسات برّز فيها حتى عدّ من أعظم ساسة العرب . كان لا يولّي الا السيد المسوّد في قومه ، ويستميل القلوب بالعطاء او بالاقناع او بالإغضاء ، فاذا لم تنجع هذه الوسائل وتوجس شراً ممن اغضى عنه وترضاه فلم يفلح عمد الى القسوة ، وكان يقول لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . وكان يقول : إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا . أي انه يطلق للناس حرياتهم فاذا لجأوا الى اظهار القوة اذاقهم بأسه الشديد . وكان يبذل الأموال العظيمة للعلويين والهاشميين فاذا لامه احد على هذا البذل اجابهم إن الحرب تستلزم نفقات اكثر من هذا العطاء . وكذلك كان ابنه وولي عهده يزيد : اعطى عبد الله بن جعفر اربعة آلاف الف فقيل له : أتعطي رجلاً واحداً هذا ؟ فقال : ويحكم إنما اعطيتها اهل المدينة اجمعين فما يده الا عارية .

واستخدم معاوية القصاص للدعاية السياسية يقعدون في المساجد والمعسكرات يدعون لدولته وينفرون من اعدائها ، وهذه الدعاية لم تكن زمان النبي ولا زمان صاحبيه ابي بكر وعمر ، وكان القاص اذا سلم الامام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحده

ومجده، وصلى على نبيه، ودعا للخليفة ولأهله ولأهل بيته وجنوده، ودعا على اهل حربه. واستخدم ايضاً الشعراء للدعاية، وزين لهم الدعوة الى التفاخر بالقبيلة والأيام المشهورة، واخرج الشعر من الهجاء بعض الشيء، وكان الشعراء في الدهر الغابر كأرباب الصحف في المدنية الحديثة يفعلون في عقول الناس بشعرهم، خصوصاً اذا كان الشاعر فحلاً مُفلقاً. اما الخطابة فكان جميع أهله خطباء، وقد كان قوادهم ورجالهم كذلك خطباء أبيناء. وخُطب زياد وعقبة والحجاج من ابلغ ما يؤثر عن خطباء العرب.

ابداع معاوية

كان معاوية يخرّج عماله في الادارة ويعلمهم اياها بالعمل، ولا يعتمد الا على العظماء والدهاة امثال عمرو بن العاص والمغيرة. وكان من عادته اذا اراد ان يولي رجلاً من آله بني حرب ولاه الطائف، فان رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها، فان احسن الولاية وقام بما ولي قياماً حسناً جمع له معها المدينة، فكان اذا ولي الطائف رجلاً قيل هو في ابي جاد، فاذا ولاه مكة قيل هو في القرآن، فاذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق.

وله في سياسة العناصر ضروب من الابداع منها انه رأى النصارى كثرة غامرة في الشام فما احب اجلاءهم، ومارأى من السياسة تركهم وشأنهم، لئلا يستعين بهم الروم على الفاتحين، فنقل الى الساحل قوماً من زُطّ البصرة والسيابجة وانزل بعضهم انطاكية، ونقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الأردن وصور، ونقل من أساورة البصرة والكوفة (الأساورة قوم من العجم بالبصرة كالأحامرة بالكوفة) وفرس بعلبك وحمص وانطاكية جماعة. واسكن حصن سفيان الذي بناه على اميال من طرابلس، جماعة كثيرة من اليهود، وأسكن الشام كله جمهرة من القبائل العربية مزجهم بأهلها الأصليين، فأصبح الساحل كالداخل في هذه الديار غاصاً بالعجم والعرب وبالسود والبيض وبالمسلمين والنصارى واليهود.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

رأى معاوية أن ارض الحجاز قاحلة ، يعيش اهلها في شظف من العيش ، على هذا كانوا منذ اقدم عصور التاريخ ، ولما جاء الاسلام وفتحت البلاد وكثرت الأموال فرض عمر بن الخطاب العطاء ، فأصبح الناس يعيشون من عطائهم ، وكان بعضهم يعيشون في الجاهلية من تجارتهم . وفي الاسلام دخل الممتازون في اعمال الدولة ، ولكن هذا لم يدم طويلاً ، على ما تنبأ به حكيم بن حزام لعمر ، فتركت قريش التجارة واكتفت بالعطاء ، ثم بطل العطاء وبطلت التجارة ، لما تحولت دار الملك من المدينة الى دمشق .

خشي معاوية ان يهلك الناس في الحجاز اذا اعتمدوا على الموسم موسم الحج ، أو على صدقات المسلمين ، فمن في جملة ما عُني به من أعماله باصلاح الزراعة في بلاد الحجاز ، فأحيا موات الأرضين ، واحتفر الآبار للسقيا ، واقام سدوداً لخزن المياه والأمطار ، فعاشت الحجاز من ارضها قرناً لم تشهد مثله من قبل ولا من بعد . وسارت أسرته على قدمه في هذا الباب فما ابطلت عمله بل تعهدته ونمته . وتسلسل الفكر مائل في بني أمية الى الآخر أبداً ما بدأ به الأول ، لا ينقضه ولا يغيره .

واعظم ما فاز به معاوية ان رعيته من اهل الشام كانت تحبه محبة عظيمة ، وبهم وَرِيَ زناده ووصل الى اهدافه وكتب له النصر على اعدائه .

ميزات بني أمية

ويطول بنا نفس القول اذا اردنا ان نعرض لكل خليفة من خلفاء الأمويين ، وما قام به من الأعمال العظام في السياسة والادارة ، واذا وازنا بين الرجال لانرى من عيارهم في الدول الخالفة كثيراً ممن يدانيهم ، واين مثل مروان ، وابنه عبد الملك وابنه عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك ، والوليد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ؟ ولعمر بن عبد العزيز في أمور الدولة وسياستها وتنظيم ادارتها ابداع لم يعهد مثله الا لجده لأمه امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانت له في باب التقوى والزهد اعمال تتضاءل معها سيرة الزهاد المشهورين .

قال ابن الأثير : ولقد سمعت عن عمر بن العزيز كلة اعجبتني جداً ، وهي انه قيل له في الذي يخرجه ويطلقه من الأموال التي لا تسمح نفس ببعضها فقال لهم : أنا فتحت الدكان بعد العصر ، فاتر كوني اعمل الخير فكم اعيش ؟ وكذلك كان .

ومما امتازت به دولة الأمويين انها كانت دولة عربية صرفة بدمها وأخلاقها وعاداتها ومراميها ومظاهرها ، وكان ابناؤها كلهم يحرصون على التزوج من العربيات من بنات الأشراف ، ولم يكن في جميع خلفائهم من أمه أم ولد غير مروان بن محمد آخر خلفائهم في الشرق ، كانت أمه كردية ، على حين كان العباسيون كلهم ابناء إماء الا اولهم السفاح ، ولذلك جعلوه اول خلفائهم وقدموه على المنصور وهو اكبر منه سناً وعلماً وسابقة . افسد العباسيين دمهم العربي بالاقتران بالاماء ، وافسدوا عصبيتهم بما كان من زهدهم في عنصرهم واعتمادهم على ابناء خراسان وعلى الموالي والعبيد فسقطت الأصول وقامت الفروع بدلها ، وأصبح بنو العباس على طول الأيام خلاسيين وهجناء لا بالعرب ولا بالعجم . اما بنو أمية فما عهد فيهم هذا ، كان دمهم صافياً واخلاقهم متشاكلة ، ويقوم نساؤهم ورجالهم عند الحد الذي رسمته لهم الفطرة ، وقضت به احكام الشريعة .

ما سمع في دولة بني أمية ان يتدخل النساء في شؤون الدولة وقد رأينا الحرم في الدولة العباسية منذ عهد المنصور يتدخلن فيما لا يعنيهن من شؤون الرجال ، ولذلك اوصى المنصور ابنه الا يجعل للنساء سبيلاً الى الدخول في مهمات دولته . وكان من اثر تغيير الدم العباسي واتخاذ أمهات أولادهم من الفارسيات والروميات والكرجيات وغيرهن ان كثرت المؤامرات في قصور الخلفاء ، واصبح قتلهم من الأمور المعتاد وقوعها ، وكانوا — اذا استثنينا منهم المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم واثنين او ثلاثة من المتأخرين من خلفائهم — الى ذل ليس بعده ذل ، واكثرهم أشبه بشائخ طرق في زواياهم منهم بخلفاء يأمرون في قصورهم فلا يعصون ، ويشهرون الحرب ويعقدون الصلح ، واحكامهم نافذة في القاصية والدانية .

ربما يُعترض على هذا بأن الوليد بن يزيد من الأمويين قد قُتل أيضاً ، والغالب ان قتله كان بسبب تخليه عن اليانية لا لفسقه ولا للهوه كما اتهموه ، وهذه التهمة اذاعوها ليبرروا أمام الأمة مقتله ، اما سائر خلفائهم فكانوا في الغاية من السياسة والشجاعة والحزم والتقوى والعمل ليل نهار على مصالح دولتهم ومصالح الناس . وكان آخرهم مروان بن محمد على غاية العقل وحسن التدبير ، ولما نفذ القضاء سقطت الدولة بيده ، حتى ان الخليفة الذي جار عليه التاريخ – وتاريخ بني أمية كتبه اعداء دولتهم بعدهم ، كما شاءت الأهواء السياسية – ونعني به امير المؤمنين يزيد بن معاوية لم يكن باجماع ثقات المؤرخين بالدرجة التي صوره بها اعداء دولتهم ، ولا هو الذي قتل الحسين ولا امر بقتله ، ولما جاءه خبر مقتله اضطرب ولعن قاتله ، فاتخذ أعداؤه من هذه الفاجعة المؤلمة حجة على الحط من يزيد وآل يزيد .

عمران الأمويين وتأثيراتهم الدينية والمدنية

ومما امتازت به دولة بني أمية غرامهم وخالها بالعمران ، فقد اقام خلفاؤهم في المشرق أمثال الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك من الجوامع والمستشفيات والخانات ودور الضيافات والقصور والطرق والجسور والسدود وتمصير الأمصار وتحضير البوادي والقفار ما هو عجيبة تلك العصور ، وما زال الجامع الأموي بدمشق وقصر الحير الذي اكتشف في البادية وجيء بنموذج منه الى متحف دمشق شاهدين على تلك العناية الفائقة وتلك المدنية الباهرة . قال احد دهاقين خراسان لعاملها من بني أمية (والدهقان رئيس الاقليم) إنكم بنيتم الايوانات في المفاوز ، فيجيء الجائي من المشرق والآخر من المغرب فلا يجدان عيباً الا ان يقولا : سبحان الله ما أحسن ما بني .

أما ما قامت به دولتهم في الغرب من الأعمال العظيمة على يد مؤسسها عبدالرحمن الداخل وآل بيته فأعاد به مجد آبائه بعد ان قضى العباسيون في الشرق على كل أموي وأموية فالكلام عليه يطول . ولا نغالي اذا قلنا ان ثلث ماتم للعرب من

حضارة قام في الأندلس بفضل بني أمية ، والثلثان الآخران قاما في بغداد ودمشق والعواصم الأخرى كمصر ونيسابور وشيراز والري وأصبهان وغزنة .

وبما عرف به الأمويون من مرونة سياسية وادارة حكيمة رشيدة انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية في القاصية من دون ما دعاية ولا تبشير مبشرين ، وامتد ملكهم الواسع في بلاد تبلغ مساحتها نحو ثلاثة ارباع مساحة اوربا ، وقدرها بعضهم بثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ وذلك من سواحل الاطلنطي الى تخوم الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها الى خط الاستواء وما وراءه . وفي عهدهم دخلت في الاسلام أمم كثيرة من السلالة السامية (العرب والسريان والكلدان) ومن السلالة الحامية (المصريون والنوبيون والبربر والسودان) ومن السلالة الآرية (الفرس واليونان والاسبان والأهاند) والاهاند او الهنادك رجال الهند ، ومن السلالة التورانية (الترك والتتار) وكانت تقام شعائر الاسلام ويقرأ القرآن في قرطبة وفاس كما تقام الصلوات في السند وسمرقند ، وتتلاقى العناصر المختلفة في الموسم بمكة ، وفيهم الاسود والأحمر والأصفر والابيض تجمعهم جامعة الاسلام والطاعة لبني أمية . واصبحت دمشق هذه في نظر المسلمين كرومية في نظر اهل النصرانية ، وما كانت قبل عهد الأمويين تعد شيئاً بين العواصم والحواضر ، ودك العباسيون معالم عمرانها عندما فتحوها مخافة ان ينسب للأمويين شيء من الحسنات تذكر الناس بخصومهم أمس ، وقضوا على كل اثر لهم على نحو ما فعل التتار بالعباسيين في القرن السابع لما استولوا على بغداد عاصمة ملكهم وقضوا على الخلافة العباسية

(يتبع)

اولية تدوين المعاجم
وتاريخ كتاب العين المروي
عن الخليل بن أحمد

أحاط بكتاب العين ونشأته كثير من الغموض ، وتضاربت أقوال الناس في مؤلفه تضارباً شديداً ، وكثر الطعن فيه حتى ليصعب على الباحث أن يتخذ لنفسه بشأنه رأياً خالصاً من كل شائبة ، وأين هذا من قيمة الكتاب وحسن الأثر الذي أحدثه في عالم المعاجم العربية إذ كان أولها وفيه ظهر الترتيب على حروف المعجم وعنه أخذ . وقد تعرض بعض علماء عصرنا للبحث في كتاب العين بحثاً ممتعاً[1] وعنوا ببعض نواحيه غير أنهم جميعاً لم يذكروا بالتفصيل تاريخ نشأته وكيفية تأليفه مع أن ذلك فصل جليل القدر من تاريخ علم اللغة العربية بل من تاريخ العلوم العربية عامة لما له من أثر في نشوء ترتيب الألفاظ على حروف المعجم ذلك الترتيب الذي اتخذه مؤلفو العرب نهجاً في التأليف اقروه واستفادوا منه وقدموه خالصاً لعلماء الغرب يجنون منه أحسن الثمر .

وسأحاول في هذا البحث أن أسد هذه الثغرة ما استطعت ، وسبيلي إلى ذلك أن أدرس أولاً أقوال العلماء في كتاب العين واحررها ثم اذكر كيف أسس بناؤه فاستطرد إلى الترتيب على حروف المعجم وأثر الخليل بن احمد في ذلك واختتم البحث في صورة اتمام الكتاب بعد تأسيس بنائه .

(١) نذكر منهم على ترتيب تاريخ نشر أبحاثهم الاستاذ جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ١٢٢ – ١٢٤ والاستاذ احمد أمين في ضحى الاسلام ٢ : ٢٦٦ — ٢٦٩ والاستاذ وليام مارسيه في درس له عن المعاجم العربية ألقاه عام ١٩٣٦ (اخذ عنه مذكرات الاستاذان محمد المبارك وخلدون الكناني وتفضلا باعارتي هذه المذكرات) والاستاذ الاب انستاس ماري الكرملي في مجلة الثقافة السنة الاولى العدد ٣٢ ص ٤٢ — ٤٥ والعدد ٧٢ ص ٣٢ — ٣٣ الى غير ذلك من الابحاث التي سنذكرها خلال دراستنا هذه .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ — اقوال العلماء في كتاب العين وتحريرها

لم يُعرف كتاب العين في حياة مَن نُسب إليه اي الخليل بن احمد[١] نابغة العرب ومبدع علم العروض ومثقف الأنغام، ولم يرو الكتاب عنه تلميذ معروف من تلامذته بل ظهر بعـد وفاته سنة ١٧٠ او ١٧٥ ورواه الليث بن المظفر بن نصر بن سيار[٢] من فقهاء خراسان وظهر في كتاب العين ما يدعو اكثر من مرة إلى استنكار نسبته إلى الخليل حتى لقد قيل « اتفق علماء اللغة على كثرة الأغاليط في كتاب العين[٣] » « واطبق الجمهور منهم على القدح فيه[٤] » « فان فيه من التخليط والخلل والفساد مالا يجوز ان يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلاً عن نفسه[٥] » والخليل كان امة في اللغة « بُرياً به عن نسبة الخلل إليه[٦] » زد إلى ذلك « ان ما وقع في الكتاب من معاني النحو انما هو على مذهب الكوفيين وبخلاف مذهب البصريين[٧] » مع ان الخليل شيخ البصريين . وهنالك مآخذ أخرى على الكتاب سنراها فيما يأتي ؛ على ان كل هذه الحجج لا تستقيم في تعليل ادعاء

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) ذكر الاستاذ ابن شنب في معلمة الاسلام الطبعة الافرنسية ٢ : ٩٦٠ والاستاذ بروكلمان في تاريخ الآداب العربية (G. A. L.) ١ : ١٠٠ وفي ذيله له ايضاً ١ : ١٠٩ المظان التي ترجم فيها للخليل بن احمد وتضيف اليها اخبار النحويين البصريين للسيرافي طبعة الاستاذ كرنكو ص ٣٨ والكامل لابن الاثير في وفيات سنة ١٦٠ ، ٦ : ١٨ وتاريخ ابن كثير ١٠ : ١٦١ في وفيات سنة ١٧٠ وغاية النهاية في طبقات القرا ١ : ٢٧٥ ومفتاح السعادة لطاشكبري ١ : ٩٥ وطبقات النحويين لابن قاضي شهبه نسخة الظاهرية تاريخ ٤٢٨ ص ٢٧٩ وتنقيح المقال للمامقاني ١ : ٤٠٢ ومنتهى المقال لابي علي ١٢٨ ورجال ميرزا محمد ١٢٢ وسرح العيون لابن نباته ص ١٤٤ ـ ١٤٧ طبعة ١٢٧٨

(٢) يترجم له الازهري في تهذيب اللغة ص ٢٧ من طبعة زترستين Zettersten وياقوت في رشاد الاريب طبعة مارجليوث ٦ : ٢٢٢ ـ ٢٢٧

(٣) النووي ، تهذيب الاسماء واللغات ص ٢٢١

(٤) المزهر مطبعة الاسماعيلية ، ١٢٨٢ ، ١ : ٤٨ و ٥٨

(٥) عن ابن جني في المزهر ، ١ : ٤٠ والبلغة لمحمد صديق حسن خان ، طبعة ١٢٩٦ ص ١٥٨

(٦) عن الزبيدي في المزهر ١ : ٤١

(٧) عن الزبيدي في المزهر ١ : ٤٢ وكشف الظنون طبعة ١٢١١ ، ٢ : ٢٩٠

الليث بن المظفر نسبة الكتاب الى الخليل ، والكتاب إبداع يتمنى كل عالم ان ينسب اليه . وكذلك تضاربت آراء العلماء وانقسموا الى طوائف اربع في امر نسبته الى الخليل .

نسب الى الطائفة الأولى القول بان الخليل لاعلاقة له بكتاب العين فذكر ان ابا بكر بن دريد (٢٢٣ — ٣٢١) قال : « لم يرو هذا الكتاب عن الخليل احد ولا روي في شيء من الأخبار انه عمل هذا البتة[1] » والحق ان ابن دريد لم يقل هذا فقد ورد في كتاب الجمهرة له ما يناقضه[2] وفي الخبر مغالاة كبيرة وخطأ فقد روى ابن راهويه (—٢٣٨) الفقيه المعاصر لليث ان الخليل شرع في عمله[3] كما سنرى ذلك ، وذكر لنا ابن فارس (— ٣٩٥) انه قرأ الكتاب مروياً بسند أوصله الى بندار بن لره الأصفهاني ومعروف بن حسان عن الليث عن الخليل[4] » وذكر ابو محمد بن درستويه (٢٥٨ — ٣٤٧) انه سمع كتاب العين بهذا الاسناد : « قال ابو الحسن علي بن مهدي الكسروي ، حدثني محمد بن منصور المعروف بالزاج المحدث قال قال الليث بن المظفر بن نصر بن سيار كنت اسير الى الخليل[5] » الى آخر ماذكر . ورواه ابن عبد البر الاندلسي[6] (—٤٦٣) وابو بكر محمد بن خير بن خليفة[7] (٥٠٢ — ٥٧٥) بسند يتصل الى ابي الحسن علي بن مهدي عن ابي معاذ عبد الجبار بن يزيد عن الليث بن المظفر بن سيار الليثي عن ابي عبد الرحمن الخليل . ولعل الناس رأوا ان كتاب العين انتقل الى علماء كثيرين دون رواية فظنوا ان لا رواية له فنسبوا الى ابن دريد ما لم يقل

---

(١) في الفهرست طبعة فلوجل ص ٤٣ ـ ٤٢ (٢) قال في ٣/١ « وقد الف ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد ... كتاب العين فأتعب من تصدى لغايته » (٣) التهذيب للازهري ص ٢٧ وارشاد الاريب لياقوت طبعة مارجليوث ٦ : ٢٢٢ (٤) المقاييس في اللغة نسخة مصورة في المجمع العلمي ص ١ (٥) في الفهرست ٤٢ (٦) في المزهر ١ : ٤٦ (٧) في فهرسة مارواه عن شيوخه في المكتبة الاندلسية ص ٣٦٩

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

وذكروا عن ثعلب (٢٠٠ — ٢٩١) انه قال ان « كتاب العين موجود ولا رواية له[١] » وقالوا مثل النضر بن شميل (— ٢٠٣) عنه فأنكره فقيل له : لعله ألفه بعدك ، فقال : اوخرجت من البصرة حتى دفنت الخليل بن احمد[٢] » ولعلهم نسوا ان النضر لو كان صاحب الكتاب لما كان نسبه الى الخليل بل تبجح به . وذكر الزبيدي في رفض الكتاب مايلي[٣] « لما ورد كتاب العين من بلد خراسان في زمن ابي حاتم انكره ابو حاتم واصحابه اشد إنكار ودفعه بأبلغ الدفع ، وكيف لا ينكره ابو حاتم على ان يكون بريئاً من الخلل سليماً من الزلل وقد عبر أصحاب الخليل بعد مدة طويلة لا يعرفون هذا الكتاب ولا يسمعون به منهم النضر بن شميل ومؤرج ونصر بن علي وابو الحسن الأخفش وامثالهم ... ثم ظهر الكتاب بأخَرَة في زمان ابي حاتم وفي حال رياسته وذلك فيما قارب الخمسين والمائتين لأن ابا حاتم توفي سنة ٢٥٥[٤] » وليس في هذا القول تحقيق فكيف لا يعرفه ابو فيض مؤرج بن عمرو السدوسي العجلي[٥] وقد استدرك عليه كما يقول ابن النديم[٦] واستدرك عليه النضر بن شميل[٧] ايضاً واذ قد عرفه مؤرج (توفي سنة ١٩٥) والنضر بن شميل (توفي سنة ٢٠٣ او ٢٠٤) فهو قد انتقل من خراسان قبل سنة ٢٥٠ ففي هذا الخبر أغلاط تاريخية تجعلنا نشك في بقيته اذ تقول « ولم يلتفت اليه احد من العلماء ، ولا استجازوا رواية حرف منه ولو صح الكتاب عن الخليل لبدر الاصمعي واليزيدي وابن الاعرابي واشباههم الى تزيين كتبهم وتحلية عملهم عن الخليل والنقل لعلمه وكذلك من بعدهم كأبي حاتم وابي عبيد ويعقوب وغيرهم من المصنفين فما علمنا احداً نقل في كتابه عن الخليل من اللغة حرفاً » ، واذا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) الفهرست ٦٠ (٢) ارشاد ٦ : ٢٢٧ وانظر عن النضر بروكلمان ١ : ١٠٢ وذيله ١ : ١٦١ (٣) المزهر ١ : ٨٢ (٤) المزهر ١ : ٨٢ وانظر عن ابي حاتم سهل بن محمد السجستاني بروكلمان ١ : ١٠٧ وذيله ٢ : ٦٧ (٥) انظر بروكلمان ١ : ١٠٢ (٦) الفهرست ٨٣ (٧) كشف الظنون ٢ : ٢٩١ ، نزهة الالباء للانباري ، طبعة ١٢٩٤ ، ص ١١١ ، وفيات الاعيان ٢ : ٣

قبلنا ان هؤلاء العلماء لم يستجيزوا الرواية من الكتاب فذلك لأنهم لم يثقوا براوي الكتاب والحق يقال اننا لم نلق خبراً موثوقاً عنهم ينفي اثر الخليل من الكتاب نفياً باتاً حتى إن الزبيدي الذي يورد هذه الاعتراضات لا ينفي عن الخليل يده في الكتاب ٠

والطائفة الثانية تنسب الكتاب الى الخليل وعلى رأسها ابن فارس (—٣٩٥) الذي يدعي ان «اعلا كتب اللغة كتاب ابي عبد الرحمن الخليل بن احمد المسمى كتاب العين[١] » ومنها الانباري الذي يقول ان «الخليل اول من ضبط اللغة واملي كتاب العين على الليث بن المظفر[٢] » ويقول بتأليف الخليل للكتاب ابن خلدون[٣] وابو بكر بن خليفة[٤] ومحمد صديق حسن خان[٥] وابن شنب[٦] ولعلهم حين قالوا بذلك لم ينتبهوا الى المطاعن على الكتاب ، ودليلنا على ذلك ان ابن فارس حين يذكر اخطاء كتاب العين يخشى ان ينسبه بنفسه الى الخليل ويقول « واما الكتاب المنسوب الى الخليل فان فيه من الاخلال مالاخفاء به على علماء اللغة[٧] » وكذلك يبدو ان هذه الطائفه لم توثق قولها بدليل بل القته على عواهنه بلا تحرير ٠

والطائفة الثالثة تدعي ان الخليل شرع بالكتاب ومات قبل ان يتمه فأتمه الليث ٠ واول من قال بذلك على ما نعلم اسحاق بن ابراهيم الحنظلي بن راهويه الفقيه (—٢٣٨) وهو عالم خراسان تلك البلدة التي ألف فيها الكتاب فقد ثبت عنه انه قال « كان الليث بن المظفر رجلاً صالحاً ومات الخليل ولم يفرغ من كتاب العين فأحب الليث ان ينفق الكتاب كله فسمى لسانه الخليل[٨] » وذُكر عنه انه قال « كان الخليل عمل منه باب العين وحده وأحب الليث ان ينفق سوق

(١) المقاييس في اللغة ص ١ (٢) نزهة الالباء ٥٥ (٣) المقدمة في باب اللغة ٠
(٤) فهرسة ما رواه ٣٦٩ (٥) البلغة ٢٦ (٦) معلمة الاسلام الطبعة الافرنسية ٢ : ٩٦٠
(٧) الصاحبي في فقه اللغة ، مط المؤيد ١٣٢٨ ، ص ١٨ (٨) التهذيب ٢٧ ارشاد الاريب ٦ : ٢٢٢

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخليل فصنف باقيه[1] » وثانيهما السيرافي (—٣٦٨) فقد قال في طبقات النحاة في ترجمة الخليل « عمل اول كتاب العين المعروف المشهور[2] » وهذه العبارة كما يقول السيوطي « صريحة في ان الخليل لم يكمل كتاب العين[3] » وثالثهما الازهري (٢٨٢—٣٧٠) ويدعي « انه لم ير خلافاً بين اللغويين ان الثابت المحمل في اول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن احمد وان ابن المظفر أكمل الكتاب عليه بعد تلقفه اياه عن فيه[4] » ويتبع هؤلاء عدد من العلماء[5]

وقد حيكت الأقاصيص حول هذه الفكرة فروي عن الحسن بن علي المهلبي أن الخليل كافأ الليث بالكتاب فحرقته امرأة الليث نكاية بزوجها ، وكان قد حفظ نصفه فرغب الى العلماء ان يجمعوا النصف الآخر ، وكذلك خرج الكتاب غير متساوي التأليف[6] . واقوال هذه الطائفة جميعاً مردودة عند من درس الكتاب فوجد ان المآخذ عليه هي هي في اول الكتاب وآخره وفي باب العين وغيره من الابواب كما سنرى ، ولو انها تزيد وتنقص تبعاً للابواب .

والرأي الذي يجوّ من كل اعتراض وجيه قول الطائفة التي ترى ان الخليل رسم الكتاب ولم يحشه ، اي انه وضع ابواب الكتاب ورتبها ثم حصر الابنية المستعملة والمهملة دون ان يذكر معناها واشتقاقها وتذكر في اولها احمد بن يحيى ثعلب (٢٠٠ — ٢٩١)[7] الذي يقول : « انما وقع الغلط في كتاب العين لان الخليل رسمه ولم يحشه ، ولو كان هو حشاه لما بقي فيه شيء لان الخليل رجل لم ير مثله[8] » ويأخذ بهذا الرأي ابو الطيب اللغوي (توفي بعد ٣٨١) في

(١) ارشاد الاريب ٦ : ٢٢٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩٠ (٢) اخبار النحويين البصريين نشره الاستاذ كرنكو بيروت ١٩٣٦ ، ص ٣٨ وعنه في بغية الوعاة ٢٤٣ (٣) المزهر ١ : ٣٨
(٤) التهذيب ٣٩ (٥) ياقوت في ارشاده ٤ : ١٨٢ ، سرح العيون ، ص ١٦٦
(٦) طبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء لابن المعتز ، طبعة عباس اقبال ، ١٩٣٩ ، ص ٣٨ — ٣٩ مفصلا وعنه ارشاد الاريب ٦ : ٢٢٣ ، المزهر ١ : ٣٩ ، بغية الوعاة ٢٤٥ (٧) انظر عنه في ذيل بروكلمان ١ : ١٨٢ (٨) المزهر ١ : ٣٩ وكشف الظنون ٢ : ٢٩٠ وكل ذلك نقلا من ابي الطيب اللغوي .

كتاب مراتب النحويين ويقول بأن الخليل «هو الذي رتب ابوابه وتوفي من قبل ان يحشوه[1]» وبذلك يأخذ الزبيدي (٣١٦ — ٣٧٩) ملخص كتاب العين والمستدرك عليه حين يقول « وأكثر الظن فيه ان الخليل بوب اصله وثقف كلام العرب ثم هلك قبل كماله[2]» ورأي هذه الطائفة اقرب الآراء جميعاً الى الصحة وابعدها وقوعاً في الاعتراضات التي رأيناها في صدر بحثنا ، ولكنه مقتضب يقتضي الشرح وناقص لا يفي للخليل بكل حقه من الكتاب ·

(يتبع) **يوسف العش**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) المصدران السابقان (٢) المزهر ١ : ٤١ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١ · ويتحفظ ابن جني (— ٣٩٢) اكثر من ذلك فيقول ترجيحاً : « فان كان للخليل فيه عمل فلعله أومأ الى عمل هذا الكتاب ايماء ولم يله بنفسه » (نزهة الالباء ٥٥) ويقرب من رأي ابن جني غير انه أوسع وأضبط رأي صاحب مقالة « كتاب العين وطبعه » في لغة العرب السنة ٤ ، الجزء الثاني آب ١٩١٤ ، ص ٥٧ اذ يقول : « أما رأينا الخاص فهو ان مدون نص العين هو الليث واما الذي يروي عنه اغلب ما جاء في النص فهو الخليل بن احمد كما انه هو الذي دفع الليث الى تدوينه بصورته المعهودة »

مخطوطات ومطبوعات

الفرزدق

أنشأ الاستاذ خليل مردم بك رسالةً أوجز فيها الكلام على الفرزدق ، فأشار الى نسبه ، وأفاض في ذكر أخباره وفي الحوادث التي كان لها أثر في حياته ، ولم يغفل شيئاً من صفاته ومن أخلاقه ومن التناقض في هذه الأخلاق ، وتعرض لهواه السياسي ولعصبيته العربية ، ووصف شعره الذي يمثل حياة العصر الأموي اكثر من كل شاعر إسلامي ، وتكلم على مافي هذا الشعر من آثار الاسلام والعصبية العربية والقرآن ، وعلى ما تضمنه من شوارد اللغة وفصحها ، ومن أخبار العرب وأيامهم ولم يفته ذكر ما صبغ به من صباغ بدوي ، فقد كان شعر الفرزدق سجل حياته ومرآة عصره ، وتصدى الاستاذ للمفاضلة بين الفرزدق وجرير وذكر أقوال طائفة من الشعراء والأدباء فيها ، ثم اندفع في توضيح مواضع شتى من شعر الفرزدق مثل فخره وهجائه ومدحه ووصفه وغزله ورثائه وأدبه وحكمته ، وأرسل الكلام على كل ناحيةٍ من هذه النواحي ، وكان في كل موطن من هذه المواطن يستشهد بطائفة من شعر الفرزدق حتى يكون كلامه قريباً من الأذهان .

وختم الأستاذ خليل مردم بك رسالته بعبارة دلت على تواضعه وانصافه فقد قال : هذه دراسة موجزة للفرزدق شاعر العرب في العصر الأموي ورأس الشعراء الإسلاميين لا أدعي أنها كاملة ولكن أرجو ان تكون صحيحة .

وحقيقة القول ان القارئ يفرغ من هذه الرسالة ونصب عينيه صورة للفرزدق تمثله في كل النواحي التي أتى على ذكرها الاستاذ تمثيلاً صحيح الوجوه ويغلب على الرسالة تهذيب البيان وهو عنوان تهذيب نفس واضعها وعنوان أدبه السامي في حياته وأحاديثه ومجالسه

شفيق جبري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اعلام النساء

في عالمي العرب والاسلام

هذا كتاب جليل جمع فيه مؤلفه السيد عمر رضا كحالة آلافاً من أسماء النساء العربيات وسير ذوات المناقب الفضلى والمواهب الفذة منذ أيام الجاهلية حتى مشارف عصرنا الجديد ، ولقد رتب هذه الأسماء والسير ترتيباً معجمياً بدأه بالألف وأنهاه بالياء وقسم هذه الحروف على صفحات كتابه الضخم الذي جاء في ثلاثة أجزاء

ولعل التوفيق الذي ظفر به السيد كحالة في وضعه هذا المعجم الطريف قد واتاه من عمله اليومي فهو من موظفي دار الكتب الأهلية في مجامع المجمع العلمي العربي في دمشق ، كان دأبه طول ايامه الهادئة البحث والتنقير في تضاعيف الكتب المخطوطة والمطبوعة عن مشهورات النساء اللاتي خلدن آثاراً بارزة في العلم والأدب او العمران والاحسان ، فاستطاع بما أوتيه من صبر على التنقيب ورغبة صادقة في نشر مآثر العربيات والمسلمات ان يؤلف هذا السفر النفيس الذي جاء مفخرة لأمتنا العربية ، كما أحسب أمة مهما بلغت حضارتها وثقافتها في قديم الدهر وحديثه استطاعت ان تنجب امثال هاتيك النساء الفضليات .

وهذه لعمري ظاهرة شموخ ورفعة نكاثر بها على الزمان ونفاخر في مساجلات ليلى الاخيلية ومطارحات فضل الشاعرة ورثاء الخنساء وبطولة بنت الأزور وشمم بنت الصديق ام عبد الله بن الزبير وأدب باحثة البادية وقصائد التيمورية وأمثال ذلك كثير لا يحصيه عد في كتاب الاستاذ كحالة — ما يحفز المرأة العربية المعاصرة ويهيب بها لنهضة شماء شاملة تسير فيها على سنن الغوابر من هؤلاء النساء البواهر فتعود اليها أمجادها .

فأنا أكبر صنع السيد عمر رضا كحالة الذي دل مؤلفه على حسن اختيار وبراعة تنقيب وأشكر المكتبة الهاشمية التي أنفقت على طبع الكتاب في هذا الزمن العصيب الذي اشتدت فيه ازمة الطباعة والورق .

وداد سكاكيني

آراء وأنباء

تراجم الرجال

تاريخ القرن الثالث عشر — إلى رجال العلم وحملة الأقلام

لا يخفى ان اول من صنف في تراجم الرجال من علماء وادباء وامراء ووجهاء هو قاضي القضاة ابن خلكان الذي بدأ تاريخه من الهجرة النبوية وانتهى فيه الى اثناء قرنه السابع، ثم جاء بعده الإمام الحافظ ابن حجر فوضع مصنفاً في تراجم رجال القرن الثامن من ٧٠١ — ٨٠٠ ثم تلاه العلامة الحافظ السخاوي فصنف كتاباً في تراجم رجال القرن التاسع من ٨٠١ — ٩٠٠ ثم جاء العلامة نجم الدين الغزي فألف تاريخه في رجال القرن العاشر من ٩٠١ — ١٠٠٠ ثم تلاه الأديب الكبير السيد محمد امين المحبي فوضع مؤلفاً في تراجم رجال قرنه الحادي عشر من ١٠٠١ — ١١٠٠ ثم جاء بعده مفتي دمشق الاسبق السيد محمد خليل المرادي فوضع تاريخاً لرجال قرنه الثاني عشر من ١١٠١ — ١٢٠٠ وقد طبع أكثر هذه الكتب وانتفع بها .

ولقد كان هذا العاجز منذ أربعين سنة مولعاً بإكمال هذه السلسلة التاريخية داعياً إلى وضع تاريخ لرجال القرن الثالث عشر من ١٢٠١—١٣٠٠ فجمعت في نحو سنتين نحو مائتي ترجمة بيضتها في مجموع أحفظه حتى الآن وفيه الكثير من امر دمشق ومصر ونابلس وحمص وقليل من علماء العراق والحجاز واليمن وحلب وحماة وطرابلس ثم فترت الهمة فكنت في هذه المدة الطويلة ألحق بذلك المجموع مايقع في يدي من التراجم كلما سنحت لي فرصة، وربما بلغ الجميع حتى الآن مايزيد على ثلاثمائة ترجمة لمشاهير القرن الثالث عشر، واني اعتقد بان مجموعي لم يزل ناقصاً من تراجم بعض رجال ذلك القرن، وهذا ما يدعوني الى ان اعلن على صفحات الجرائد والمجلات العلمية رجائي من رجال العلم وحملة الأقلام بأن يتحفوني بما لديهم وما تصل اليه ايديهم من تراجم من وقعت وفاتهم في القرن المذكور من سنة ١٢٠١ — ١٣٠٠ بما يوافق نهج المحبي والمرادي المذكورين اتماماً لهذه السلسلة التاريخية البديعة فان في ذلك تخليد ذكرى الأسلاف الصالحين والأجداد .

محمد جميل الشطي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عُدى وعِدى

قرأت في الجزء الأول من المجلد السادس عشر من مجلة المجمع العلمي كلمة الزميل الاستاذ المغربي المعنونة بـ (الراديو وأثره في نشر اللغة) ولما بلغت الى تعبير (الديبلوماسيين) الجديد وتقسيمهم الناس الى محارب وحيادي او مسالم ولا محارب واقتراحه استعمال عُدى مضمومة العين للمحارب وعِدى بكسورة العين للامحارب أعجبت بما اتفق له من وقوع نظره على هاتين الكلمتين اللتين تصلحان للقيام مقام كلمتي (المحارب) و (اللامحارب) وقلت رب اتفاق خير من تعمد ورب صدفة خير من ميعاد ·

رأى هذه التفرقة بين هذين الحرفين في محيط المحيط للبستاني وفي أقرب الموارد وانه بعد مراجعة اللسان والتاج والصحاح والاساس والمصباح لم يعثر في هذه المعاجم على هذه التفرقة وبقي في نفسه شيء لعدم وقوفه على المصدر الذي اعتمده صاحبا محيط المحيط واقرب الموارد في هذه التفرقة فذكرت انني كنت قد وقفت على هذه التفرقة في عهد غير بعيد في المخصص في السفر الثالث عشر الصفحة ١٣٣ من المخصص:

«ابن السكيت: قوم عِدى وعُدى بالكسر والضم فاذا ادخلوا الهاء ضموا أوله فقالوا: عُداة · يحيى: العُدى بالضم الأعداء الذين تقاتلهم · وبالكسر الذين لا تقاتلهم · حكاه عنه ابن جني»

التشاوس والتضارس

وفي هذه الصفحة من هذا السفر ما يقوم مقام (المحارب) و (اللامحارب) تشاوس القوم تعادوا · وتضارس القوم تعادوا وتحاربوا   سليمان ظاهر

استدراك

وقعت في صدر الجزء الأول هفوات في أسماء اعضاء المجمع دعا اليها انقطاع المواصلات بين البلاد فدخل الاستاذان الشيخ خليل الخالدي والدكتور سعيد ابو جمرة في الراحلين وما زالا ولله الحمد في الحياة مدّ الله في عمرهما · وسقط اسم الاستاذ الشيخ محمد بهجت الاثري من بين اعضاء بغداد وهو مازال عضواً مؤازراً وما نسي القراء اياديه البيض على الآداب ·